

إسهامات الخطاب الصوفي في تفعيل القيم الإنسانية في المغرب الأوسط

عبد الرحمان الثعالبي - أنموذجا -

الطالب: عمر بغداددي

الدكتور: برامة احسن

طالب دكتوراة: ل.م.د.

أستاذ محاضر - جامعة الأمير عبد القادر -

مقدمة

تعد المدرسة الصوفية بمختلف اتجاهاتها وطرقها إحدى منابع الفكرية والسلوكية التي كان مجتمع المغرب الإسلامي يستقي منها قيمه ومبادئه، التي يحيا بها ويتفاعل معها داخل المجتمع، فقد كان الخطاب الصوفي ولا يزال محل حظوة واهتمام داخل هذه المجتمعات لما له من إسهامات في مختلف المجالات التربوية والاجتماعية والأخلاقية بل وحتى السياسية والاقتصادية.

ولعل من أهم أسباب تفاعل المجتمع المغربي مع الخطاب الصوفي هو ما تميزه هذا الأخير من القوة الروحية والعاطفية التي استطاعت أن تصيغ مجموعة من القيم الإنسانية والحضارية النابعة من أساس التوحيد . حيث شكل التسامح في التعامل مع الآخر أحد المقومات الأخلاقية والمنهجية مما سمح لهذا الخطاب أن يفتح على الآخر وهذه الميزة في اعتقادنا كانت من أهم الأسباب التي حققت نوعا من الاستقرار النسبي وجنبت بلاد المغرب إلى حد ما أجواء الصراعات الكلامية العنيفة.

و سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نسلط الضوء على إسهامات هذا الخطاب في مختلف مناحي الحياة، خاصة ما تعلق منها بالجانب الإنساني على اعتبار أن مجتمع المغرب الأوسط في تلك المرحلة كان خليطا من عدة مكونات دينية واجتماعية وسياسية، إلى جانب حالة الضعف العام والتخلف التي كانت تطبع باقي المجالات .

وقد كان لبناء الزوايا في تلك المرحلة التاريخية الحرجة من الدور الإيجابي ما أهلها لتكون منارة إنسانية وحضارية التف حولها المجتمع الجزائري بمختلف فئاته .

ومن أهم أعلام المدرسة الصوفية في المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط شخصية الشيخ عبد الرحمان الثعالبي الذي عاش في المغرب الأوسط -الجزائر- ما بين القرن الثامن الهجري والقرن التاسع للهجرة هذه الفترة التي اتسمت بكثرة الحروب والانقسامات وتردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية .

حيث ألفت هذه التحديات شعورا بمزيد من المسؤولية والشعور بالواجب الديني في شخصية عبد الرحمان الثعالبي في ضرورة العمل على إصلاح هذه الأوضاع مرتكزا على الإصلاح التربوي الذي ينطلق من إعادة بناء الإنسان بناءا صحيحا ومتينا يؤهله لإعادة دوره الحضاري. وقد كان الثعالبي على وعي بأهمية قيم التصوف في لعب هذا الدور الإنساني والحضاري معا.

وقد عملنا في البداية على إلقاء الضوء على عصر وبيئة الثعالبي من مختلف جوانبها، كما تناولنا سيرة هذا العالم الجليل، من خلال كتب التراجم التي أرخت لحياته، و مؤلفاته التي تكشف لنا عن ما تميز به هذا الشخص من عمق الطرح وأصالة الأفكار، وإسهاماته في مجال الإصلاح والدارس لتفسيره المشهور "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" والذي اعتمدنا عليه

بشكل كبير يكشف أمامنا مرة أخرى إسهامات العلامة عبد الرحمان الثعالبي في هذا المجال الفكري والإنساني والحضاري.

حياة الشيخ عبد الرحمان الثعالبي

1) المولد والنشأة

مولده: ولد الشيخ عبد الرحمان الثعالبي بمدينة الجزائر العاصمة في جنوبها الشرقي ناحية "يسر" سنة 785 للهجرة

الموافق ل:1384، فكانت نشأته بأسرة علم وصلاح ينتهي نسبها إلى جعفر بن أبي طالب كما دلت على ذلك بعض التراجم التي تناولت سيرة الثعالبي¹.

إسمه وكنيته: هو عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، ويكنى بأبي زيد، فينتمي بذلك إل أسرة الثعالبة التي تقلدت العديد من المناصب السياسية ذلك الوقت مما جعلها محل استهداف من قبل خصومها المرينيين والحفصيين²

عصر الثعالبي:لقد عاش الثعالبي في عصر مليئ بالاحتقان والصراع السياسي والاجتماعي، فقد عرف هذا العصر العديد من التقلبات والتغيرات فولد أوضاعا مزرية اجتاحت العالم الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة وفي مايلي نذكر لمحة عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في عصر الثعالبي.

الوضع السياسي:

لقد عرف المشهد السياسي في تلك الحقبة التاريخية التي عاش فيها الثعالبي عدة تقلبات ونزاعات، حيث اشتد الصراع على السلطة بعد سقوط الدولة المؤمنية، فكثرت الملوك والأمراء وسادت الفوضى، فعجل ذلك بانقسام جديد بعد سقوط دولة الموحدين، فكان القرن الثامن للهجري عصر شهد فتنا وحروبا بين القبائل والولادة، سيما بين الحفصيين والزيانيين والمرينيين، فقد لعبت مدن بجاية وفاس وتلمسان أدوارا هامة في الصراع، مما كان له الأثر السلبي على الحياة الاجتماعية والثقافية فدب الضعف والانقسام داخل المغرب الأوسط، كما ظهرت أشكال الفساد وعمت الفوضى فسجل التاريخ في تلك المرحلة سقوط دولة الثعالبة وهم آل عبد الرحمان الثعالبي كما ذكرنا من قبل سنة 780 للهجرة/1378م على يد بني عبد الواد وملك تلمسان³

الوضع الإجتماعي:

لا شك أن الوضع السياسي الذي ساد المغرب الأوسط في تلك المرحلة كان له الأثر الكبير على الحياة الاجتماعية، حيث عرفت هذه الأخيرة كل مظاهر التخلف الحضاري وانتشار الخرافة والدجل، كما غلبت عليها النزاعات القبلية والحروب، فخلفت من ورائها انتشارا واسعا للفقير والجهل مما جعل الكثير من فئات المجتمع يلجأون إلى الصوفية ورجالها طلبا للعون نتيجة للأثر العميق الذي خلفته تلك الأوضاع في نفسية الإنسان المغربي، فقد أصبحت الصوفية بزواياها ومساجدها وأربطتها ملاذا آمنا حيث يجد المجتمع الراحة والسكينة التي يفتقرها بسبب ممارسات العنف والأوضاع المزرية التي يعيشها⁴

الوضع الثقافي:

¹ عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية الجزائرية، الجزائر، دت، ص29

² عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص14

³ المرجع نفسه ص15

⁴ عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص16-17

نختصر الوضع الثقافي لبيئة الثعالبي في ظهور العديد من المدارس والحواضر العلمية على غرار فاس وبجاية وتونس وتلمسان خلال القرنين الثالث عشر والقرن السادس عشر ميلادي، حيث عرفت هذه المدارس نشاطا علميا مزدهرا في ذلك العصر، كونها تشرف على تعليم المجتمع وتوجيهه وتربيته على مختلف المبادئ والقيم الإسلامية فساهمت في انتشار المذهب الأشعري في العقيدة والمذهب المالكي في الفقه، فتخرج منه الكثير من العلماء والفقهاء المتصوفة كالشيخ "الثعالبي" بالجزائر و"المصمودي" بتلمسان وغيرهم كثير، هذا دون أن ننسى المساهمات الإنسانية التي حظي بها مجتمع المغرب الأوسط من قبل الزوايا التي كانت تعج بالفقهاء والمحتاجين الذين يقصدون الزوايا وشيوخها لأجل قضاء حوائجهم¹.

حياة الثعالبي العلمية

رحلته في طلب العلم: يعد الشيخ الثعالبي أحد القامات العلمية التي أنجبتها المدرسة الصوفية في بلاد المغرب الإسلامي، وخير دليل على ذلك إسهاماته العلمية، فقد تخرج على يديه العديد من العلماء البارزين، كما أخذ العلم على كثير من العلماء والفقهاء في زمانه، وحاز كما معتبرا من الإجازات العلمية في مختلف العلوم، والأهم من ذلك رحلاته العلمية التي جاب من خلالها العديد من الحواضر العلمية البارزة آنذاك مما يدل على أن الرجل كان شغوفاً بالعلم وأهله، وفي ما يلي نذكر أهم المحطات العلمية التي جابها خلال رحلته في طلب العلم.

- المحطة الأولى: رحلته من العاصمة إلى بجاية حيث اشتغل هناك بالدراسة وطلب العلم لمدة تقارب السبع سنوات على يد علماء أجلاء أمثال: أبو الحسن علي بن محمد اليليتني، والشيخ أبو القاسم المشدالي وغيرهم²
- المحطة الثانية: رحلته إلى تونس حيث تعتبر تونس البوابة الأولى للثعالبي خارج التراب الجزائري، فخرج طالبا للعلم قاصدا جامع الزيتونة الذي يعد من أبرز الحواضر العلمية في العالم الإسلامي في تلك المرحلة، كان ذلك في سنة 1405/809م وكان عمره آنذاك أربع وعشرون سنة، فبقي في تونس أزيد من تسع سنوات، كلها في طلب العلم والبحث والتحقيق، ومن أخذ عنهم في تلك المرحلة الشيخ أبو المهدي عيسى الغبريني، وأبو القاسم البرزلي والشيخ يعقوب الزغبي³.
- المحطة الثالثة: رحلته إلى المشرق، متوجها إلى الديار المصرية سنة 1415/817م فالتقى بالعديد من الشيوخ وقرأ عليهم وأخذ عنهم مختلف العلوم، فقرأ على الشيخ أبو عبد الله محمد الجيلالي البخاري "إحياء علوم الدين للغزالي" و"موطأ الإمام مالك"، وكان مكثه بمصر قرابة سنة، ثم توجه بعدها قاصدا أرض الحجاز لأجل أداء فريضة الحج فأخذ عن بعض شيوخ الحجاز ما تيسر من العلوم⁴.

¹ المرجع نفسه، ص 21-24

² الصادق دهاش، العلامة عبد الرحمان الثعالبي رحلة علم وعمل، مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 11، السنة 2007/1428، ص 146

³ المرجع نفسه، ص 147-148

⁴ المرجع نفسه، ص 148-149

يتضح مما سبق أن العلامة عبد الرحمان الثعالبي كان حريصا على طلب العلم، وعلى الرحلة ومكابدة الصعاب في سبيل تحصيله، فقد مر على العديد من البلدان والأمصار، اكتسب من خلالها التحصيل العلمي والخبرة في شؤون الحياة، بمعايشته لمختلف الشعوب، فأثمرت هذه التجربة لديه رؤية ثاقبة للحياة وفكرا متزنا، مما أهله لأداء أدواره التعليمية والاجتماعية، فأسس زاويته المشهورة للتربية والتعليم ونشر التصوف المعتدل، وكل قيم التعايش والتسامح بين أفراد المجتمع.

شيوخ الثعالبي: لا شك أن الثعالبي تتلمذ على يد العديد من العلماء والفقهاء خلال جميع مراحل تعلمه، نذكر بعضا منهم، يقول صاحب كتاب "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" عن شيوخ الثعالبي: «من أخذ عن أبي القسم العبدوسي وحفيد ابن مرزوق والبرزليوالغبريني وحج وأخذ عن الولي العراقي»¹

تلاميذه: تخرج على يد العلامة الثعالبي العديد من العلماء والفقهاء في مختلف العلوم كالفقه والتصوف واللغة والحديث وغيرها من العلوم، وقد أخذوا عنه العلم والسلوك، ومن أبرز هؤلاء التلاميذ:

علي بن عباد البكري الفاسي سمع منه الحديث²، ويعقوب بن عبد الرحمان بن بكار المغربي الفاسي، أخذ عنها الحديث أيضا³.

ومحمد بن مرزوق الكفيف روى عن الثعالبي الحديث⁴.

محمد بن عبد الكريم المغيلي حفظ القرآن وأخذ العلم عن الشيخ الثعالبي⁵

إجازاته العلمية:

كما مر معنا من قبل فقد كانت حياة الثعالبي العلمية مليئة بالحركة والتفاعل مع مختلف العلماء والفقهاء والمتصوفة، الذين أخذ عنهم العلم والسلوك ومختلف الإجازات العلمية التي كانت تأتيه من قبلهم، إما عن طريق اللقاءات أو عن طريق المراسلات، فكانت هذه الإجازات بمثابة الشهادة العلمية المؤهلة في حمل رسالة العلم والعلماء، فحاز الثعالبي بذلك كل مواصفات الصوفي والفقيه والمصلح، ومن أبرز تلك الإجازات.

إجازة العلامة الأبي.

إجازة ابن مرزوق.

إجازة ولي الدين العراقي⁶.

¹ شمس الدين بن محمد السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، دت ، ج4، ص152

² المصدر نفسه، ج5، ص273

³ المصدر نفسه، ج10، ص284

⁴ محمد بن عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، تحقيق: إحسان عباس، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ج1، ص526

⁵ محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ط1، دار مكتبة الهلال، دت ، ص372

⁶ عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص131-140

يمتلك الثعالبي رصيذا من التأليف لا بأس به نظرا لتبحره في مختلف العلوم كاللغة والفقه والحديث والتصوف وغيرها من العلوم الأخرى، هذا الرصيد الذي عاد بالنفع على الأمة الإسلامية، غير أن من كتبه ما هو مفقود لم يصلنا أصلا، ومنها ما هو مخطوط، ومنها المطبوع ، وفي مايلي ذكر لأشهر تصانيفه:

- الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز.

- جامع المهمات في أحكام العبادات.

- العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة، وهو كتاب مطبوع.

- قطب العارفين ومقامات الأبرار والأصفياء والصدّيقين.

- نفائس المرجان في قصص القرآن.

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن وهذا الأخير من أهم كتبه و أشهرها وهو كتاب مطبوع يحتوي على خمسة أجزاء.¹

وفاته:

توفي العلامة عبد الرحمن الثعالبي في يوم الجمعة في الثالث والعشرين من شهر رمضان 875 هـ - منتصف شهر مارس 1471 م، ودفن بمقبرة " جبانة الطلبة"، حيث ضريحه الشهير به إلى اليوم من عاصمة الجزائر.²

تصوف عبد الرحمان الثعالبي:

لقد أجمع كل من عاصر الثعالبي أو تتلمذ عنده على أن الرجل كان يميل إلى الزهد والتصوف بشكل كبير، وقد عرف عنه ذلك من خلال زهده في الحياة وطريقة عيشه التي تتوافق مع منهج الصوفية وتطبيقاتها العملية في مختلف شؤون الحياة، ثم تأثره برجال التصوف كالغزالي، والمحاسبي وغيرهم مما ذكره في مؤلفاته، خاصة منها تفسيره "الجواهر الحسان في تفسير القرآن".

أما عن زهده فقد شهد له بذلك القاضي والداني فقد «كان من أولياء الله المعرضين عن الدنيا وأهلها ومن خيار عبادها الصالحين»³.

ويقول عنه سلامة البكري وهو أحد تلاميذه: «كان شيخنا الثعالبي رجلا صالحا زاهدا عالما عارفا وليا من أكابر العلماء، له تأليف جمّة أعطاني نسخة من تفسير الجواهر لا بشراء ولا عوض، عاوضه الله الجنة»⁴.

¹ عمر بن رضا كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، دت، ج5، ص195

² عبد الرحمن بن محمد الجلالي، تاريخ الجزائر العام، ط 8، دار الأمة، الجزائر، 2008م، ج 2، ص 365.

³ أحمد بن عمر التكروري، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، ط2، دار الكتاب، طرابلس، 2000م، ص257

⁴ المرجع نفسه، ص257

كما ذكر الإمام محمد بن يوسف السنوسي طرفا من زهده فقال: « كنا يوما مع سيدي عبد الرحمان الثعالبي وعليه ثوب أبيض وعلى رأسه عمامة عريضة مسدولة على ظهره، قال: فوقف على مكان مرتفع ونحن أسفل منه، فنظرت إلى ساقيه فرأيت طرف ثوب شعر ملاصق لجسده، فتعجبت من زهده رضي الله عنه حيث جعل الثوب الأبيض من فوق ذلك، فمن رآه بذلك الثوب الأبيض ظن أنه من أهل الدنيا، وهو في باطن الأمور خلاف ذلك »¹. وهذا يطلعنا على أن تصوف الثعالبي تصوف معتدل بعيد عن الغلو الذي كان سائدا عند الكثير من متصوفة عصره، وهو المنهج الذي اختاره لنفسه بأن يحدو الحدو الغزالي أبي حامد فجمع بين العلم والسلوك.

فأغلب الباحثين يذهبون إلى أن الثعالبي ينتمي إلى المدرسة الغزالية في تصوفه، فلا يقول بحلول ولا يذهب مذهب وحدة الوجود، وقد بدا ذلك جليا في مؤلفاته و منهجه في التصوف²، ومن خلال الدارسين لسيرة الثعالبي والباحثين في مؤلفاته ظهر أن الثعالبي تأثر بالمدرسة الغزالية في التصوف لعدة أسباب.

الأول: تأثر الثعالبي ببيئته الصوفية التي نشأ فيها فكان بداية هذا التأثير انطلاقا من أسرته، حيث أخذ الثعالبي جزءا من علم التصوف عن جده مخلوف الثعالبي الذي كان من كبار الصوفية في المنطقة، وتلمذ عليه فكان للعامل الأسري دور مهم في إحياء تصوف الغزالي عند الشيخ الثعالبي، غير أن هذه البيئة التي نشأت على هذا النمط من التصوف لم تسلم في غالب الأحيان من تلك الأفكار والممارسات الدخيلة على التصوف، كالدروشة والشعوذة وغيرها من التقاليد المخالفة التي كانت سائدة في محيطه الاجتماعي³.

الثاني: وهو عكوف الثعالبي على كتب أبي حامد الغزالي تعلمنا وتعلينا، حيث أبدى تأثره بكتاب "الإحياء" وكان كثير النقل عنه في تفسيره، كما يؤيد رأي الغزالي في الكثير من المسائل التي ناقشه، ليس هذا وحسب بل أبدى إعجابه بجميع كتب الغزالي⁴.

الثالث: مساهمة الشيخ الثعالبي في إصلاحه للتصوف على طريقة الغزالي، وذلك في إنكاره للكثير من الممارسات و الخرافات التي كانت في مجتمعه، كالشعوذة التي راجت في عصره، ومن أمثلة ذلك إنكاره قضية حمل المرأة من الجن، ومحارته لظاهرة الرياء والتصنع المتفشية عند أغلب متصوفة زمانه، وكان غالبا مايرد هذه الشبهات في تفسيره القيم "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"⁵.

كذلك من مصادر التصوف عند الغزالي نقله عن الحارث المحاسبي وتأثره أيضا ببعض كتبه على غرار الغزالي فكان كثيرا ما ينقل عنه خاصة في أبواب الأخلاق والسلوك ومن أمثلة ذلك تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي

¹ رمضان بخلف، عبد الرحمان الثعالبي ومنهجه في التفسير، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر، 1991م، ص36-37

² أسعيد عليوان، عبد الرحمان الثعالبي متصوفا، مجلة المعيار، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، العدد14، السنة142/ 2007م،

ص312-314

³ المرجع نفسه، ص313

⁴ المرجع نفسه، ص315

⁵ المرجع نفسه، ص323

جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ¹ يقول: « قال المحاسبي: وإذا أخذ أهل الجنة مجالسهم واطمأنوا في مقعد الصدق الذي وعده الله لهم فهم في القرب من مولاهم سبحانه على قدر منازلهم عنده، انتهى من كتاب "التوهم"²»

الإسهامات الإنسانية للمدرسة الصوفية في بلاد المغرب الأوسط

تعد المدرسة الصوفية إحدى الجهات الفاعلة في بلاد المغرب الأوسط لفترات طويلة من الزمن إلى اليوم، لما قدمته للمجتمع من خدمات جليلة إصلاحية واجتماعية وإنسانية، فقد كانت تمثل الملاذ الآمن لتلك المجتمعات في مختلف الظروف والمحن، وفي ما يأتي نقدم نبذة من الإسهامات الإنسانية للصوفية في المغرب الأوسط في عصر الثعالبي.

الإصلاح الاجتماعي:

لقد كان للمدرسة الصوفية سهم في إصلاح المجتمع وتربيته، وذلك من خلال توغلها في المجتمع الجزائري، بنشر الأخلاق الفاضلة والقيم الإسلامية وكل مبادئ التعايش في أوساط المجتمع المغربي، فقد دأبت كل الاتجاهات الصوفية على تنوعها في نشر الأخلاق وسط المجتمع، دون إغفالها للجانب الاجتماعي وهو مشاركتها للفقراء في القوت، والتعاطف معهم في مختلف الظروف والأزمات، فقد عرف شيوخها وروادها من طلبة العلم والقرآن، عرفوا بالصدقة على فقراء المجتمع والتعاطف معهم ونشر قيم التراحم وغيرها من الخصال الحميدة التي أكسبت المجتمع توازنا على الصعيدين الفكري والاجتماعي³.

فقد لعبوا «دورا كبيرا في حياة الناس وخاصة في العهد العثماني في الجزائر حيث ظل الوجود يسيّر على سياسة سلبية لا تربطه بالسكان إلا جباية الضرائب، وبالتالي فقد ملاً المرابطون والطرق الصوفية الفراغ الذي كان سائدا في المجتمع الريفي المنعزل عن الحكومة التي أهملت جانبه سواء في ميدان الرعاية أو التعليم والتوجيه فكانت الطرق الصوفية هي البديل عن الحكومة حيث عملت على تحقيق الوحدة الوطنية وهو ما أهمله الأتراك عن عمد رغم الصراع الذي واجهته من طرف العلماء والمرابطين ورجال الدين والحكام الأتراك على الصعيد الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي»⁴.

أما على الصعيد الأسري فقد أدركوا أهمية الأسرة في المحافظة على توازن المجتمع وتماسكه، فقد كان لهم إهتمام بالغ بالأسرة، عكس ما يعتقدونه الكثيرون بأن الصوفية كانوا بعيدين عن الحياة الأسرية وشؤونها، فقد نقل عنهم خلاف ذلك، حيث عرف عنهم بأنهم أصحاب أسر وأبناء فأعطوا النموذج الحسن في رعاية الأبناء وتربيتهم، فهذا أبو

¹ القمر: 4

² عبد الرحمان الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، ط1، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1997م،

ج5، ص344

³ الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين / 12 و13 الميلاديين، دار الهدى، عين مليلة، 2004م، ص167

⁴ فيلاي مختار الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الفن القرافيكي، باتنة، ص62-63

محمد عبد الله بن حجاج الجزائري له خمسة أبناء أنبتهم نباتا حسنا، حتى صار فيهم القاضي، والفقيه الصوفي، وغيره من بقية أعلام التصوف كأبي مدين وعبد الله بن مرزوق، وهذا يعكس الجانب الإنساني والاجتماعي لدى الصوفية، ومدى صلتهم بالواقع¹.

أما من جهة التكافل الاجتماعي فقد كان المجتمع الجزائري يعتمد في الغالب على الصوفية في مواجهة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، فقد كانت الزوايا والمساجد غالبا ما تمد يد العون للمحتاج والفقير، ومن القرائن الدالة على ذلك، « أن أهل بجاية لما أصابتهم مجاعة أوائل القرن السابع للهجرة، وامتألت شوارع المدينة بالمعوزين والمتشردين الذين يفتقدون إلى المأوى والمأكل والملبس، ولم يتحرك والي الموحدين، ولا أغنياء المدينة وأعيانها للتخفيف من معاناة هؤلاء الفقراء، فحمل الصوفي أبو زكرياء يحيى الزواوي(1215/611م) على عاتقه مسؤولية إعالة هؤلاء المعوزين والتكفل بهم، فلجأ إلى جمع المعونات من أغنياء المدينة وأكثرى فدقا بثلاثمائة دينار، جمع فيه الفقراء والمتشردين واشترى ما يكفيهم من الطعام واللباس، إلى أن انجلت الأزمة في العام الموالي فانصرفوا إلى مواطنهم»².

كما كان لهم الدور في إصلاح ذات البين بين الناس، ومحاربة الآفات الاجتماعية كالزنا وشرب الخمر وكل أشكال الفساد الأخلاقي، فكانوا يعقدون المجالس لتوعية عامة المسلمين في الزوايا والمساجد، فمثلا مدينة بجاية كانت خلال النصف الثاني من القرن السادس للهجرة تعقد فيها مجالس الوعظ والتذكير، كمجلس أبي زكرياء يحيى الزواوي ومجلس أبي تميم الواعظ الوهراني وغيرها من مجالس التربية والتوجيه³.

كما كانت لهم المساهمة في المحافظة على الإستقرار السياسي والاجتماعي والفكري ولو نسبيا داخل المجتمع، فقد كان لها دور بارز في تحقيق الأمن والسلام، إضافة إلى أدوارها الأخرى حيث « عملت على تحقيق السلام و الأمن والاستقرار بين القبائل، فكانت تتدخل في حسم الخلاف بين القبائل كلما نشبت حرب بينهما، كما عملت على توفير التعليم لأبناء السكان وإطعام الفقراء والمعوزين والعجزة»⁴

الجانب التربوي والتعليمي:

لقد كان مجتمع المغرب الأوسط يعج بالزوايا والمساجد، فما من قرية أو مدينة إلا ويوجد فيها زاوية أو رباط، لما تحظى به هذه الزوايا من مكانة لدى المجتمع الجزائري على وجه الخصوص، فقد نشأ وترعرع في كنفها وتعلم أبناؤه القرآن بين جدرانها، بل كانت جل أفراحه وأتراحه تقام بها، وكثيرا ما يلجأ إلى مشايخها طلبا للدعاء والبركة، فكانت العلاقة راسخة بين المجتمع وتلك الزوايا، نظرا لأهميتها ومكانتها.

¹ الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص 169-170

² المرجع نفسه، ص 188

³ المرجع نفسه، ص 190-192

⁴ فيلاي مختار الطاهر، المرجع السابق، ص 62-63

فقد أدركت السلطة السياسية آنذاك أهميتها فسارعت إلى احتضانها والعمل على متابعتها وتبنيها، موازاة مع الحكومة القائمة آنذاك ، وجعلها بمثابة الملاذ الآمن الذي يؤوي إليه الكثيرون لقضاء حوائجهم الدينية والدينيوية، ففي ظل ذلك الانحطاط القائم حرص شيوخها على الإشراف عليها، وإمداد المجتمع بكل ما يحتاجه من التربية والتعليم والإصلاح، فاستمرت في وظيفتها هذه من غير توقف لفترات طويلة¹.

لا شك أن إسهامات الصوفية في الجانب التعليمي والتربوي لا تكاد تحصى في بلاد المغرب الأوسط، وذلك من خلال تصديهم لهذه الوظيفة الشاقة، بتعليم النشأ من صبيان وشباب وحتى عامة الناس لمختلف العلوم، بدءا من القرآن الكريم مروراً بالعلوم الأخرى كالفقه واللغة والحديث وغيرها من العلوم ، كذلك ما أخذوه على عاتقهم من تصدريهم للإفتاء والتوجيه الديني، فقد كان لهم الحضور البارز في مختلف المناسبات الاجتماعية كالأفراح ومجالس الصلح وعقود البيع وغير ذلك من الأمور الاجتماعية.

فقد عملوا على تعليم الصبيان وتحفيظهم القرآن الكريم في سن السابعة، ومن الأمثلة على ذلك أبو إسحاق الإشبيلي الذي كان يحفظ القرآن للصبيان في تلمسان دون أن يتقاضى على ذلك أجرا².

فقد كانت مساهمة المؤسسات التربوية الصوفية من مساجد وزوايا ومدارس مساهمة جد معتبرة خلال الفترات التاريخية المختلفة وفي شتى الظروف.

كذلك تدريس التصوف كان له نصيب بالإضافة إلى العلوم الأخرى، فقد كانت حلقات الدرس تقام لأئمة وشيوخ الصوفية في المساجد والزوايا، وكان الطلاب يأتون من مكان للإستماع والحوار والمناقشة في مختلف القضايا العلمية، فلم يجعل الصوفية مكانا مخصصا للعلم بل كان المجال مفتوحا للجميع³.

فقد كان للمغرب الإسلامي العديد من المدارس الصوفية التي اشتهرت وذاع صيتها في مجال التربية والتعليم، من ذلك المدرسة القيروانية بتونس التي تأسست زمن الفتح العثماني، والمدرسة المرابطية بالمغرب، والمدرسة الجيلانية وهي أكثر شيوعا تنسب للشيخ عبد القادر الجيلاني، والثعالبية بالجزائر ، والسنوسية بليبيا⁴. وغيرها من المدارس الصوفية التي كان لها الفضل في لتربية وتعليم النشأ بما أكسب مجتمعات المغرب الإسلامي إستقرارا فكريا وروحيا، عكس المشرق الذي عرف ظهور الكثير من الطوائف والنحل المتصارعة.

والذي نؤكد عليه أن الصوفية مزجوا تعليمهم وتربيتهم للناشئة بما يسمى بالتربية الروحية وهذا أهم ما ميز المدرسة الصوفية عامة والمغاربية خاصة، إذ كان حرص مشايخ التصوف على نشر مثل هذه التربية والعمل على ترقية المجتمع روحيا وأخلاقيا،

¹ الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص 227-228

² المرجع نفسه، ص 230

³ عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص 130

⁴ المرجع نفسه، ص 177-183

من أجل ذلك أخذ أهل التصوف على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم على عاتقهم أولوية تربية الفرد وإصلاحه من الناحية الروحية فكان جل كلامهم يدور حول إصلاح الجانب الروحي والسلوكي لدى الإنسان ، والغاية في ذلك أن يكون صالحا في نفسه ومصالحا لغيره وذلك عبر تلقيه التربية الروحية المتكاملة، التي تنسجم مع واقعه ومتطلبات زمانه، فيعيش في محيطه مندجاً فيه بفاعلية وإيجابية¹.

وفي هذا يقول عبد القادر الجيلاني في كتابه "الغنية": « ولهذا قيل: الصوفي من كان صافيا من آفات النفس، خاليا من مذموماتها، سالكا لحמיד مذاهبه، ملازما للحقائق غير ساكن بقلبه إلى أحد من الخلائق »².
فجعل الصوفية بذلك إصلاح النفس وترويضها إحدى الأسس المهمة في التربية والتعليم.

تجليات القيم الإنسانية في خطاب الثعالبي

نحاول في هذا المحور أن نسلط الضوء على الخطاب الإنساني للثعالبي من خلال تفسيره "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، فنورد بعض أهم القيم الإنسانية التي تناولها الثعالبي، لنؤكد من خلالها على إنسانية الخطاب الصوفي عموما، ثم إعطاء لمحة عن الجانب الإنساني عند الثعالبي ، بما يمثل أنموذجا للتصوف المعتدل في المغرب الأوسط، فمن بين تلك القيم المتجلية في خطاب الثعالبي:

الدعوة إلى التعايش والإصلاح بين الناس

من الأبعاد الإنسانية التي تجلت في رسالة الإسلام دعوة الناس إلى التعايش وإصلاح ذات البين، لتحقيق المصلحة العليا التي جاء بها وهي الاستخلاف في الأرض والعبودية، وقد كان الخطاب الصوفي حريص على غرس مثل هذه القيم في المجتمع، فقد مر معنا من قبل أن الزوايا كانت منارة في الإصلاح ، وذلك بأن حافظت على أرواح الناس وممتلكاتهم لسنين طويلة بفضل خطابها الإنساني الهادف، فحققت ما عجزت عنه الحكومات في تلك المرحلة .

يقول عبد الرحمان الثعالبي داعيا المجتمع الإنساني بمختلف أطيافه ومكوناته إلى التعايش والتصالح من خلال تفسيره قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾³ قال: « الضمير في نجواهم عائد على الناس أجمع، وجاءت هذه الآيات عامة التناول وفي عمومها يندرج أصحاب النازلة »⁴.

ثم يتبع كلامه بقوله: « والنجوى: المسارة، وقد تسمى بها الجماعة كما تقول: قوم عدل، وليست النجوى بمقصورة على الهمس في الأذن، والمعروف لفظ يعم الصدقة والإصلاح وغيرهما، ولكن خصا بالذكر اهتماما إذ هما عظيمتا الغناء في مصالح

¹ عادل المنوني، التصوف تربية روحية أخلاقية، <https://m.hespress.com>، تاريخ الدخول: 2018/10/27.

² عبد القادر الجيلاني الحسني، الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية، ط1 ، دار صادر بيروت دار البشائر دمشق، 1997م، ج2،

ص183

³ النساء: 114

⁴ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج2 ، ص300

العباد، ثم توعده الله بالأجر العظيم على فعل هذه الخيرات بنية وقصد لرضا الله تعالى»¹.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾².

قال الثعالبي في التأكيد على خيرية الإصلاح بين الناس: «والصلح خير لفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق...»³.

● الكرامة الإنسانية:

تعد قضية الكرامة الإنسانية إحدى أولويات الخطاب الصوفي الإنساني، فقد أخذ الإنسان حيزا كبيرا في الدراسات الصوفية قديما وحديثا، من خلال محاولتهم الارتقاء بالإنسان إلى المكانة الرفيعة، والسمو به عن باقي المخلوقات، وإظهار النعم والمزايا التي خصه الله بها.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁴.

يتحدث الثعالبي في هذه الآية عن بعض جوانب التكريم الإلهي للإنسان، وذلك أن الله فضل الإنسان على باقي المخلوقات بما أعطاه من مؤهلات خلقية و خلقية تميزه عن سائر الموجودات، على غرار العقل الذي يعد من أهمها. يقول: «وقوله جلت عظمته ولقد كرمنا بني آدم الآية: عدد الله سبحانه على بني آدم ما خصهم به من المزايا من بين سائر الحيوان، ومن أفضل ما أكرم الله به الآدمي العقل الذي به يعرف الله تعالى، ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه»⁵ فأفضل ما يميز الإنسان على سائر الخلق هو العقل، الذي به يميز الإنسان الحق من الباطل والخير من الشر، ويوصله إلى معرفة الخالق، كما يسموا به من البهيمية إلى أعلى درجات الإنسانية .

كما بين الثعالبي أن الناس يتساوون من جهة النسب البشري إلى آدم، فلا فرق بين شعوبهم أو قبائلهم فهم يشتركون في الإنسانية، وإنما يكون الفرق بينهم من جهة التقوى. يبين هذا المعنى الإمام الثعالبي من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁶

¹ المصدر نفسه، ج 2، ص 301

² النساء: 128

³ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر نفسه، ج 2، ص 307

⁴ الإسراء: 70

⁵ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج 3، ص 486

⁶ الحجرات: 13

قال: « المعنى يا أيها الناس أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقات، وإنما جعلتم قبائل، لأن تعارفوا، أو لأن تعرفوا الحقائق، وأما الشرف والكرم فهو بتقوى الله وسلامة القلوب»¹.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾²

قال الثعالبي: « في الآية تنبيه على الصانع ، وعلى افتتاح الوجود، وفيها حض على التواصل لحرمة هذا النسب، والمراد بالنفس آدم عليه السلام»³. فالنسب الإنساني بين بني البشر يمنع من كل أشكال العنف والكرهية كونهم يعودون في خلقهم إلى نفس واحدة، مما يؤكد على ضرورة التعايش فيما بينهم تحت مظلة الإنسانية.

● الرحمة بالخلق:

من الجوانب الإنسانية في خطاب الثعالبي حديثه عن قيمة منقيمها وهي الرحمة التي دعا إليها الإسلام ، حيث نستشف من تفسيره أن دعوته كانت صريحة إلى التحلي بهذا بالخلق، دون مراعاة لأي انتماء عرقي أو ديني .

ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾⁴، يبين أن الرحمة في هذه الآية عامة لجميع الخلق، فلا تخص المؤمنين وحدهم، يقول: « ورحمته بالكافرين لأن الله تعالى رفع عنهم ما كان يعجل لهم من العقوبات في الدنيا قبل مجيء الإسلام كالطوفان وغيره، فرحمهم بالإسلام بأن رفع عنهم العذاب »⁵.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾⁶ يذكر الثعالبي عن ابن عباس قوله: أن المرحة كل ما يؤدي إلى طاعة الله، ثم يأتي برأي آخر في معنى المرحة وهو: التراحم والتعاطف بين الناس، وفي ذلك قوام الناس، ولو لم يتراحموا جملته لهلكوا⁷.

فالتراحم بين الخلق هو إحدى القيم الإنسانية التي جاءت بها العقيدة الإسلامية ودعا إليها الإسلام، مبرزاً في ذلك بعده الإنساني والحضاري، وقد بين الثعالبي أن من مقاصد الرحمة بين الخلق الحفاظ على الحياة ، فلا تكتمل صورة التعايش فيما بينهم إلا بإعمال هذه القيمة الإنسانية.

وليس هذا خاص بالإنسان وحسب بل يتعدى ليشمل جميع الموجودات بما في ذلك الحيوان، يقول الثعالبي في تفسيره قوله

¹ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج5، ص237

² النساء: 1

³ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج2، ص159

⁴ النساء: 107

⁵ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج4، ص105

⁶ البلد: 17

⁷ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج5، ص90

تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾¹، يقول: «وحدثني أبي رحمه الله قال: سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين و أربعمائة: من أحب أهل الخير نال بركتهم، كلب أحب أهل الفضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله»².

وفي باب الرفق بالحيوان يقول: «ويجب على من ملكه الله شيئاً من هذا الحيوان أن يرفق به، ويشكر الله تعالى على هذه النعمة»³ ثم ذكر حديثاً في الموطأ يدل به على وجوب الرفق بالحيوان، وأن لا يحمل مالا يطاق.

● الدعوة بالرفق واللين:

من أهم القيم التي دعا إليها الإسلام لتحقيق التعايش والتواصل بين المسلمين وغير المسلمين، الدعوة إليه بالرفق واللين، فقد عرف عن أصحاب المدرسة الصوفية بمختلف اتجاهاتهم، حرصهم على تبليغ الرسالة بالرفق والمعاملة الحسنة، وخير دليل على ذلك تعايشهم مع مختلف الطوائف والأديان، فلم يعرفوا بالتعصب على غرار المذاهب الإسلامية الأخرى، وإنما عرفوا بخلاف ذلك، مما مكنهم من بسط نفوذهم وانتشارهم في العالم الإسلامي.

يقول الثعالبي داعياً العارف بالله إلى التحلي بالرفق واللين في النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «واعلم أن كل من كان وجهه إلى الدنيا، كان معادياً لأكثر الخلق، ومن كان وجهه إلى خدمة المولى سبحانه، لم يكن معادياً لأحد، لأنه يرى الكل أسيراً في قبضة القضاء والقدر، ولهذا قيل: إن العارف، إذا أمر أمر برفق، ونصح لا بعنف وعسر، وكيف وهو مستبصر بالله في القدر»⁴.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾⁵ يؤكد مرة أخرى على ضرورة إعمال مثل هذه الأخلاق في مجال الدعوة إلى الإسلام قال: «هذه الآية نزلت بمكة، أمر عليه السلام أن يدعوا إلى دين الله وشرعه بتلطف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة»⁶.

وفي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾⁷.

يقول الثعالبي: «معناه: فبرحمة، قال القشيري: في "التحبير": واعلم أن الله سبحانه يحب من عباده من يرحم خلقه، ولا يرحم العبد إلا إذا رحمه الله سبحانه قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: فبما رحمة من الله لنت لهم، انتهى»⁸.

¹ الكهف: 18

² عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج3، ص514

³ المصدر نفسه، ج3، ص412

⁴ المصدر نفسه، ج2، ص86

⁵ النحل: 125

⁶ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج3، ص448

⁷ آل عمران: 159

⁸ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج2، ص131

فقد كان الخطاب الصوفي في ذلك واضح إذ أجمع كل من عايشهم على أن دعوتهم تتجه في الغالب إلى الرفق والتسامح مع الغير، وقد تجلّى ذلك حتى في آرائهم وترجيحاتهم في المسائل المختلف فيها، حيث يجنحون في كثير منها إلى التيسير وعدم التشديد، فيتحرر الإنسان بذلك من قيود التضييق والتزمت.

ولنضرب مثالا على ذلك وهو مناقشة الثعالبي في تفسيره لمسألة أولاد المشركين، حيث ذكر الخلاف الحاصل بين العلماء في هذه المسألة على عدة آراء، فاختار المشهور منها وهو الذي قطع به على أن أبناء المشركين أنهم في الجنة، واستدل على ذلك بنصوص من القرآن والسنة النبوية، وهو قول القاضي عبد الجبار من المعتزلة¹.

● دعوته إلى الوحدة ونبذ التفرق:

من خلال الأدوار الإنسانية التي قامت بها المدرسة الصوفية على مر التاريخ، من مساعي الإصلاح والتربية وكذا المحافظة على وحدة المسلمين وتماسكهم، لم يسجل المغرب الأوسط اختلالا كبيرا في التوازن الفكري، ولا التمزق الطائفي، في مقابل مساحته المشرق من صراع مذهبي وطائفي أثر بشكل كبير في الاستقرار على الصعيد الفكري والاجتماعي .

فقد كان للصوفية الدور البارز في المحافظة على وحدة المسلمين وتماسكهم في بلاد المغرب الإسلامي، بفضل جهودهم الإصلاحية والتربوية، وبعثهم للقيم الإنسانية داخل تلك المجتمعات حيث ساعدت على إقامة كيان متماسك على الأقل في الجانب الديني والفكري لفترات من الزمن.

وما يدل على اهتمام صوفية المغرب بهذا المجال دعوة الثعالبي إلى الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق من خلال تفسيره لقول الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وادكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتكم بنعمته إخواناً﴾².

ذكر عن ابن مسعود في تفسيره لهذه الآية أن الحبل معناه الجماعة وهو مستعار، وعن ابن زيد أن حبل الله هو الإسلام³ وفي قوله تعالى: «ولا تفرقوا» قال: «يريد التفرق الذي يأتي معه الاختلاف كالتفرق بالفتن، والافتراق في العقائد، وأما الافتراق في مسائل الفروع والفقهاء، فليس بداخل في هذه الآية بل ذلك هو الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم:

«خلاف أمتي رحمة»⁴، وقد اختلفت الصحابة في الفروع أشد الاختلاف وهم يد واحدة على كل كافر»⁵.

¹ عبد الرزاق دحمون، الشيخ عبد الرحمان الثعالبي وآراؤه الإعتقادية من خلال تفسيره الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2009م، ص415-418

² آل عمران: 103

³ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج2، ص57-58

⁴ أخرجه السيوطي في الجامع الصغير، رقم: 448 بلفظ "اختلاف أمتي رحمة" وقال: «ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا»، جلال الدين السيوطي، الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، تحقيق: يوسف النبهاني، ط، 1 دار الفكر، بيروت، 2003م، ج1، ص54

⁵ عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج2، ص85-86

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾¹

يقول: « قال ابن عباس وغيره: المراد بالدين: اليهود والنصارى، أي فرقوا دين إبراهيم ووصفهم بالشيعة؛ إذ كل طائفة منهم لها فرق واختلافات، ففي الآية حض للمؤمنين على الائتلاف وترك الاختلاف »².

يبدو أن الشيخ الثعالبي كان متأثراً بالانقسامات السائدة في بيئته خاصة على الصعيد السياسي مما جعله يدعو المسلمين إلى ضرورة الوحدة، للخروج من الأوضاع المزرية التي كان يعيشها العالم الإسلامي في ذلك الوقت، كحل من الحلول الإنسانية لجلب الاستقرار الفكري والسياسي والاجتماعي، وفي باقي المجالات.

الخاتمة

يعتبر الخطاب الصوفي في بلاد المغرب الأوسط من الخطابات الفاعلة، ذات الإسهامات الحضارية والإنسانية، حيث ساعد هذا الخطاب على إنشاء بيئة استطاعت أن تحافظ على استقرارها وتوازنها في الجانبين الاجتماعي والديني، بفضل ما قدمته هذه الأخيرة من رعاية إصلاحية وتربوية للمجتمع، ارتكزت في ذلك على إعداد الإنسان إعداداً روحياً وفكرياً يمكنه من الحفاظ على ذاته أولاً، ثم على تماسك مجتمعه ثانياً.

فقد كان للمدرسة الصوفية الفضل في تكوين أجيال من العلماء والنخب، ممن كان لهم دور بارز في التربية والإصلاح على

¹ الأنعام: 159

² عبد الرحمان الثعالبي، المصدر السابق، ج2، ص533

غرار العلامة عبد الرحمان الثعالبي، الذي كان له نصيب في الإسهامات الإنسانية لدى الخطاب الصوفي في المغرب الأوسط. من خلال هذه الورقة البحثية نُخلص إلى أهم النتائج الآتية :

أولاً: أهمية الخطاب الصوفي الإنساني في الحفاظ على الاستقرار في الجانبين الديني والفكري في بلاد المغرب الإسلامي.

ثانياً: دور صوفية المغرب الإسلامي بمختلف اتجاهاتها في تكوين حاضنة اجتماعية وإنسانية لدى المجتمعات المغاربية.

ثالثاً: رغم الأوضاع التي كان يعيشها المغرب الأوسط في تلك المرحلة، إلى أن هذا لم يمنع ظهور علماء ومصلحين أمثال العلامة الثعالبي الذي قدم خدمات جليلة للمجتمع الإنساني، على غرار التربية والتعليم وإصلاح المجتمع.

رابعاً: يبقى تراث الثعالبي من كتب ومخطوطات بحاجة إلى المزيد من الدراسة والتحقيق، لإبراز القيمة العلمية والفكرية لعلماء الجزائر.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب

1. أحمد بن عمر التكروري، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، ط2، دار الكتاب، طرابلس، 2000م
2. الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين / 12 و13 الميلاديين، دار الهدى، عين مليلة، 2004م
3. جلال الدين السيوطي، الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، تحقيق: يوسف النبهاني، ط1، دار الفكر، بيروت، 2003م
4. شمس الدين بن محمد السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، دت

5. فيلاي مختار الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الفن القرافيكي، باتنة، دت
 6. عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999م
 7. عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية الجزائرية، دت
 8. عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط8، دار الأمة، الجزائر، 2008م
 9. عبد الرحمان الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م
 10. عبد القادر الجيلاني الحسني، الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية، ط1، دار صادر، بيروت، دار البشائر، دمشق، 1997م
 11. عبد الرزاق دحمون، الشيخ عبد الرحمان الثعالبي وآراؤه الاعتقادية من خلال تفسيره الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2009م
 12. عمر بن رضا كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت
 13. محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ط1، دار مكتبة الهلال، دت
 14. محمد بن عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، تحقيق: إحسان عباس، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م
- 15.الدوريات**
16. اسعيد عليوان، عبد الرحمان الثعالبي متصوفا، مجلة المعيار، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، العدد 14، السنة: 2007/1428
 17. الصادق دهاش، العلامة عبد الرحمن الثعالبي رحلة علم وعمل، مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 11، السنة: 2007 /1428
 18. رمضان يخلف، عبد الرحمن الثعالبي ومنهجه في التفسير، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1991
 19. المواقع الإلكترونية
 20. عادل المنوني، التصوف تربية روحية أخلاقية، <https://m.hespress.com>، تاريخ الدخول: 2018/10/27.

